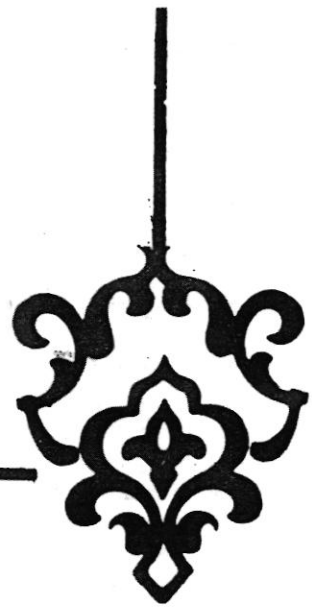

# الفصل الرابع

## ابن سلام الجمحي ونظرية الطبقات

كان لرواة القرن الاول والثاني للهجرة الاثر الكبير في تحديد مسار القضايا النقدية التي وجدت طريقها في مؤلفات القرون التالية . فقد تسللت الكثير من افكارهم وآرائهم ومصطلحاتهم الى الدراسات المنهجية الموسعة التي صاحبت حركة التأليف بدءا من القرن الثالث .

وقد مر بنا طرف مما كان يشغل بال رواة البصرة ولغوييها مما له صلة بالشعر والشعراء تحليلاً ونقدا وتقويما . غير ان تلك الاراء لم تجد من ينظمها ويستنبط منها او يبرهن عليها غير ابن سلام في كتابه ( طبقات فحول الشعراء ) . ويقول الاستاذ طه احمد ابراهيم عنه انه ( خلاصة ماقيل الى عهده في اشعار الجاهلية والاسلام )(١) . ويرى د . احسان عباس اكثر مما يراه الاستاذ طه احمد ابراهيم اذ يجد في كتاب ابن سلام اعادة صياغة للنظريات التي تلقاها ابن سلام عن اساتذته وتوسيعا لبعض افكار الاصمعي مثل فكرة ( الفحولة )(٢) .

---

( ١ ) تاريخ النقد الادبي عند العرب ( القاهرة ١٩٣٧ ) ٧٦

( ٢ ) تاريخ النقد الادبي عند العرب ( بيروت ١٩٧١ ) ٧٧ و ٨٠

ومهما يكن من شيء فكتاب ابن سلام اول مؤلف نقدي موجود يستند الى نظرية ( الطبقات ) ولانه كذلك فقد اعتمد ابن سلام منهجية واضحة جعلت بعض مؤرخي النقد العربي يرون فيه اول ناقد متخصص يصدر عن منهج مستقيم وروح علمية(٣) .

وقد قلنا انه اول كتاب موجود في الطبقات لان واقع الامر ان ابن سلام لم يكن اول من الف في الطبقات . فقد سبقه الى ذلك ابو عبيدة معمر بن المثنى . وقد اشار الى ذلك ابن النديم في الفهرست(٤) . غير ان ضياع كتاب ابي عبيدة جعل مؤرخي النقد يشيرون الى ابن سلام بصفته اول من الف في الطبقات .

ومع ان الرجلين متعاصران فالمرجع ان ابا عبيدة توفي عام ( ٢٠٨ ) هـ ) وان ابن سلام توفي عام ( ٢٣١ هـ ) . ومن الثابت ايضا ان ابن سلام روى عن ابي عبيدة اكثر من مرة ووصفه بأنه من اهل العلم(٥) . ان الروايات التي ينقلها ابن سلام عن ابي عبيدة تخص نحل الشعر واخبار الشعراء .. وخاصة شعراء العصر الاموي . ولا تمس من قريب او بعيد نظرية الطبقات وتوزيع الشعراء . ومع ذلك فالمظنون ان ابن سلام انتفع مما في تقسيمات ابي عبيدة للشعراء فالاثنان يتفقان على توزيع المخضرمين على الجاهليين والاسلاميين . بمعنى انهما لم يعترفا بوجود طبقة مخضرميين . وكلاهما يضع الحطيئة في طبقة شعراء ماقبل الاسلام وحسان بن ثابت في طبقة الاسلاميين . ويزيد بن سلام بوضعه كلا من كعب بن جعيل وعمر ابن احمد الباهلي وسحيم بن وثيل ـ وهم مخضرمون ـ في الطبقة الثالثة من الاسلاميين . وحميد بن ثور في الطبقة الرابعة وابي زبيد الطائي في الطبقة الخامسة وقرا بن حنش وبشامة بن عذير في الطبقة الثامنة مع ان الاخيرين لم يسلما . ووضع ابن سلام مع الحطيئة كعب بن زهير في الطبقة الثانية من الجاهليين اما الخنساء وهي مخضرمة ايضا لم يضعها لا مع الجاهليين ولا مع الاسلاميين وانما في طبقة مستقلة اسماها ( اصحاب المراثي ) وكان ابن سلام قد وضع شعراء المراثي في طبقة مستقلة مع طبقات الشعراء الجاهليين والحقها بطبقة ( شعراء القرى العربية ) وعدتها خمس . وكأنه بهذا يعترف باساس اخر في توزيعه الطبقي وهو

---

( ٣ ) النقد المنهجي عند العرب ٢١
ويرى جوزيف هل في مقدمة كتاب الطبقات ( ليدن ١٩١٦ ) . وقد اعيد نشرها بالاوفسيت في بيروت ان كتاب الطبقات وفحولة الشعراء للاصمعي والشعر والشعراء لابن قتيبة تمثل بدايات البحث في تاريخ الادب عند العرب .
( ٤ ) الفهرست ٥٩ . وانظر وفيات الاعيان ٣ / ٣٩٢ .
( ٥ ) طبقات فحول الشعراء ٩ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٠٧ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٠

الغرض الواحد الذي جعله يجمع ذوي المراثي في مكان واحد . وهناك اساس اخر اعتمده ابن سلام وهو ( البيئة ) الذي جعله يفرد لشعراء القرى العربية طبقة مستقلة .

والملاحظ ان ابن سلام لم يعترف بطبقة الشعراء المحدثين على الرغم من انه عاصر بعضا منهم مثل بشار بن برد ومروان ابن ابي حفصة وابي نؤاس وابي العتاهية والعباس ابن الاحنف . ولعل اهماله المحدثين ناشيء عن عصبية للقديم . وكان التعصب ظاهرة لازمت رواة القرن الثاني للهجرة كما لاحظت .

والناظر في طبقات ابي عبيدة ـ كما ترويها المصادر القديمة ـ يجد انه وضع في كل من الطبقة الاولى والثانية من الجاهلية اربعة شعراء . وهذا ما فعله ابن سلام مع اختلاف في ترتيب الشعراء ـ الا ان ابا عبيدة وضع اثنى عشر شاعرا في الطبقة الثالثة . الامر الذي لانجده عند ابن سلام . كما لم نعثر عند ابي عبيدة على طبقة رابعة او خامسة جاهلية كما لانجد طبقة ثانية او ثالثة اسلامية . وقد يكون السبب فقدان الكتاب . هذا اذا لم يكن السبب كون منهجية ابن سلام اكثر دقة وتنظيما من منهجية ابي عبيدة .

لقد وزع ابن سلام اربعين شاعراً جاهلياً على عشر طبقات . في كل طبقة اربعة شعراء . تلا ذلك مجموعة من الشعراء يبلغ تعدادهم اربعة وثلاثين شاعرا وزعهم على طبقتين واحدة اسماها طبقة ( اصحاب المراثي ) وعدتهم اربعة . واخرى اسماها طبقة ( شعراء القرى العربية ) اختارهم على النحو الاتي : خمسة من شعراء المدينة وتسعة من شعراء مكة . وخمسة من شعراء الطائف . وثلاثة من شعراء البحرين . وثمانية من شعراء يهود ... وبهذا ينتهي من الشعراء الجاهليين . اما الاسلاميون فقد اختار منهم اربعين شاعرا وزعهم على عشر طبقات . وفي كل طبقة اربعة شعراء . وقد خصص الطبقة التاسعة بالرجاز . وبذلك يكون مجموع من ترجم لهم ووزعهم منازلهم التي يستحقونها مائة واربعة عشر شاعرا .

لم تكن فكرة الطبقة ( والجمع طبقات ) من بنات افكار ابن سلام . فقد رأينا ان الرواة الاول نظروا في شعر الشعراء الثلاثة الكبار في العصر الاموي . الفرزدق وجرير والاخطل ووجدوا انهم يتماثلون في اشياء ويختلفون في اخرى الا انهم ـ مع ذلك يشكلون طبقة واحدة من حيث الجودة والمستوى الفني ثم وازن اللغويون بينهم وبين الاربعة الكبار من الجاهليين وهم امرؤ القيس والنابغة والاعشى وزهير . ووجدوا ان هؤلاء ايضا لايتفاوتون تفاوتا كبيرا وانهم يكادون يشكلون طبقة واحدة متميزة . وسن هنا ـ يقول الاستاذ طه احمد ابراهيم ـ نشأت فكرة الطبقات .

ويضيف الى ان فكرة الطبقة الاولى توحي بالضرورة بطبقات اخر(٦). وكذلك فعل ابن سلام فجعل الشعراء طبقات. وجعل الشعراء الاربعة الجاهليين الذين اشرنا اليهم قبل قليل طبقة اولى جاهلية. وجعل الثلاثة الاسلاميين ورابعهم الراعي النميري طبقة اسلامية اولى.

وليس يعنينا هنا ان يكون كتاب (طبقات فحول الشعراء) كتابين لاكتابا واحدا. الاول في (طبقات فحول الشعراء الجاهليين) والثاني في (طبقات فحول الاسلاميين). فقد ناقش هذه المسألة طه احمد ابراهيم ـ وقبله ناشر الكتاب المستشرق الالماني جوزيف هل ـ ورأى ان اضطراب المقدمة يوحي انهما مقدمتان ادمجت الواحدة بالاخرى(٧). وفي المقدمة ايضا ما يوحي ان ابن سلام الف اولا في طبقات الجاهلية وثناه بكتاب اخر في طبقات الاسلاميين. يقول (فاقتصرنا في هذه على فحول الشعراء الاسلاميين للاستغناء عن فحول الشعراء الجاهليين بطبقاني المؤلفة في ذلك. تبت هذا المؤلف على عشر طبقات. كل طبقة تجمع اربعة من فحول شعراء الاسلام(٨).

نقول ليس يعنينا هنا هذا الامر لانه لايمس جوهر النظرية التي اقام ابن سلام عليها كتابه ـ او كتابيه ـ فالمهج واحد. والمعالجة واحدة. يقول (ففصلنا الشعراء من اهل الجاهلية والاسلام والمخضرمين. فنزلناهم منازلهم واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة وما قال فيه العلماء)(٩).

## معايير النظرية :

لقد كان لابد لابن سلام ان يأخذ في الاعتبار الاساس التاريخي في توزيع الشعراء الى طبقات. فينظر الى شعراء ما قبل الاسلام بمعزل عن الاسلاميين لانهم يشكلون حقبة ادبية متميزة في اسلوب حياتها ولغتها وشعرها.

---

(٦) تاريخ النقد الادبي عند العرب ٨٤

(٧) المصدر السابق ٨١ ـ ٨٤ وانظر ايضا مقدمة جوزيف هل لطبعة ليدن (المقدمة العربية المترجمة غير مرقمة الصفحات) وانظر رأيا يتيما خلافا لهذا (النقد في العصر الوسيط) ص ٤٨ ـ ٤٩

(٨) الطبقات (ط ليدن) ١٠

(٩) المصدر السابق ٩

وكذلك الحال مع الشعراء الاسلاميين والمحدثين ايضا . ومع ان النظرة التاريخية هذه حقيقة لايجوز التغاضي عنها فأن اعتماد ابن سلام الاساس التاريخي لايشكل غير اعتراف بحقيقة تميز شعراء كل حقبة من الاخرى بجملة خصائص ، وربما في ابراز اثر السابق على اللاحق(١٠) . لكن الاساس الفني الذي يميز الشعراء بعضهم من بعض في الطبقة الواحدة ، او في الطبقات المتعددة ، يبقى هو الاهم . فهنا تبدو الممارسة النقدية السليمة لان معيار المفاضلة ليس ( الزمن ) ( او التاريخ ) وانما ( الفن ) . والحقيقة ان كتاب الطبقات كله قائم على تلك المعايير التي تضع الشاعر في طبقة دون اخرى ، او في المنزلة الاولى في الطبقة وليس في المنزلة الثانية او الثالثة مثلا . وقد كان التماثل والتناظر اساس جمع اربعة شعراء في طبقة واحدة . يقول ابن سلام ( فالفنا من تشابه منهم الى نظرائه ) واذا اردنا الدقة قلنا ان الكثرة ) و ( الجودة ) هما المعياران اللذان دفعا ابن سلام لان يضع شاعرا ما في المرتبة الاولى واخر في المرتبة الثانية ، او ان يضع مجموعة منهم في طبقة اولى واخرى في طبقة ثانية . وعلى هذا الاساس فضل ابن سلام حسانا على شعراء المدينة الخمسة لانه ( كثير الشعر جيده )(١١) ومما اخر شعراء الطبقة السابعة الجاهلية ان ( في اشعارهم قلة فذلك الذي اخرهم )(١٢) وجعل الاسود بن يعفر الثالث من الطبقة الجاهلية الخامسة لان ( له واحدة طويلة رائعة لاحقة بأول الشعر لو كان شفعها بمثلها قدمناه على اهل مرتبته )(١٣) وليعفر شعر جيد كثير كما يقول المفضل الضبي ( ونحن لانعرف له ذلك ولا قريبا منه ) كما يعقب ابن سلام ويضيف معلقا على اتجاه الكوفيين في رواية الشعر قياسا على رواة البصرة ( وقد علمت ان اهل الكوفة يروون له اكثر مما نروي ويتجوزون في ذلك اكثر من تجوزنا )(١٤) .

واذا كانت كثرة الشعر وطول القصائد لاتحتاج الى توضيح لانها مسألة ( كم ) الا ان اقترانها بالجودة دليل مقنع على فحولة الشاعر وطول باعه في النظم . على ان لجودة الشعر وحدها وجوها متعددة لم يغفلها ابن سلام . فقد تتمثل جودة الشعر في الكثير مما له صلة باللفظ او المعنى او التركيب او الصورة ، ولكل معياره .

---

( ١٠ ) عبد العزيز عتيق ، تاريخ النقد الادبي عند العرب ( بيروت ١٩٧٢ ) ٢٨٣

( ١١ ) المصدر السابق ٥٢

( ١٢ ) المصدر السابق ٣٦

( ١٣ ) المصدر السابق ٣٣

( ١٤ ) السابق ٣٤

فمن مقايّس المعنى الابتداع والجدة والسبق . ولذلك اجمع النقاد على اولوية امرىء القيس لانه اول من استوقف الصحب وابكى الديار . وقيد الاوابد . واول من شبه النساء بالظباء والبيض والخيل بالعقبان(١٥) .

ومن اسباب تفضيل زهير . انه اجمع الشعراء لكثير من المعاني في قليل من اللفظ واشدهم مبالغة في المدح(١٦) في حين ان الاعشى ( اذهبهم في فنون الشعر )(١٧) ويقول ان ( من احتج للنابغة كان احسنهم ديباجة شعر واكثرهم رونق كلام واجزلهم بيتاً . كأن شعره كلام ليس فيه تكلف(١٨)

وكان جرير ( يحسن ضروباً من الشعر لا يحسنها الفرزدق )(١٩) وكان لتفوق الشاعر في غرض واحد ما يدعو الى تفضيله على غيره. وعلى هذا كان جرير يغلب في الفخر . وجميل مقدماً على كثير في النسيب. والاخطل يجيد نعت الملوك ويصيب صفة الخمر(٢٠) .

وكان بعض الدارسين يرى ان في تقديم الكثرة على الجودة . وتنوع الاغراض على الاقتصار على غرض واحد دليلاً على اضطراب المقاييس(٢١) . وقد يكون ذلك صحيحاً اذا ادركنا ان ابن سلام اعتمد الغرض الواحد معياراً لوضع مجموعة من الشعراء في طبقة مستقلة وهم ( اصحاب المراثي ) و ( الرجاز ) وانه نظر في شعر جميل وكثير وهما من الغزليين لكنه اهمل عمر بن ابي ربيعة وهو شاعر غزل ايضاً ومتميز وذو موهبة لاتجحد . وقد يكون السبب في اهماله ان عمراً بخلاف صاحبيه ـ شاعر غزل حسي . وصاحباه من شعراء الغزل العذري . ولو اردنا ان نمضي في الاستنتاج الى ابعد من ذلك قلنا ان هذا قد يمثل موقفاً لابن سلام بشأن الغزل الحسي .

---

( ١٥ ) السابق ١٧

( ١٦ ) السابق ١٨

( ١٧ ) السابق

( ١٨ ) السابق ١٧

( ١٩ ) السابق ٨٦

( ٢٠ ) السابق ٨٧ ، ١٢٤ ، ١١٣

( ٢١ ) النقد في العصر الوسيط ١٤٦ والرأي في الاصل للدكتور محمد مندور الا انه لم يصفه بالاضطراب . انظر النقد المنهجي عند العرب ١١ .

اما مقاييس البناء والتركيب واللفظ فمنها احكام الشعر . اي متانته ، والبعد عن السخف ( اي ضعف البناء او رقته )(٢٢) وشدة متون الشعر وشدة اسر الكلام(٢٣) ورقة حواشية كما عند لبيد(٢٤) .

وليس من شك في ان هذه المعايير استخلصت بالتحليل الدقيق والنظر المتمعن لشعر الشعراء الذين ذكرهم في الطبقات فهي ـ الى ذلك ـ تمثل الخصائص العامة لشعرهم . ومع هذا فالاختلاف في تقويم الشعراء الكبار وتنزيلهم منازلهم التي يستحقونها ضمن طبقاتهم قائم . وهو يعكس اتجاهات النقد في القرن الاول والثاني للهجرة والعوامل المؤثرة فيها . وهي عوامل يتحكم فيها احياناً الذوق الشخصي والميل والهوى . ويصور ابن سلام هذا قائلاً ( ان علماء البصرة كانوا يقدمون امرأ القيس من حجر. وان أهل الكوفة كانوا يقدمون الاعشى. وان اهل الحجاز يقدمون زهيراً والنابغة )(٢٥) . وفي موضع اخر يقول ( وكان كثير شاعر اهل الحجاز . وانهم ليقدمونه على بعض من قدمناه عليه وهو شاعر فحل ولكنه منقوص حظه بالعراق(٢٦) . وقد نجد هذا الميل الى شاعر دون اخر عند الرواة انفسهم . مما يؤثر عن يونس النحوي انه فرزدقي الهوى لان يونس نحوي وجد في شعر الفرزدق مايرضيه من شاهد او مثل او خروج على قاعدة . وقد فسر تقديم اهل الكوفة للاعشى بكون شعره يلائم اهواءه وامزجتهم الرقيقة . ولا نهم عاشوا على مقربة من مراكز الحضارات(٢٧) . ويشير د . محمد زغلول سلام الى ان ابن سلام نفسه يذهب الى تغليب رأي الجماعة من اهل البصرة في ترتيبه الطبقات وانه يحكم ذوقه مستعيناً بالاراء الشائعة في ترتيب بقية الشعراء(٢٨) وهذا الموقف يؤكده تفضيل ابن سلام خلف الاحمر البصري على حماد الراوية الكوفي(٢٩) .

ولم يكن ابن سلام غافلاً عن موقف الرواة من الشعراء اذ اشار الى ( اختلاف الرواة فيهم )(٣٠) ( اي في الشعراء ) وانهم ( الرواة ) ( قالوا بارائهم )(٣١) . ولذلك كان

---

( ٢٢ ) الطبقات ١٨ و ٢١
( ٢٣ ) السابق ٢٩
( ٢٤ ) السابق
( ٢٥ ) السابق ١٦
( ٢٦ ) السابق ١٢٢
( ٢٧ ) النقد في العصر الوسيط ٦٩
( ٢٨ ) تاريخ النقد العربي ١ / ٣٨
( ٢٩ ) الطبقات ٩
( ٣٠ ) السابق ٩
( ٣١ ) السابق ٩

لابد لدارس الشعر ان يكون اهل العلم به . فالشعر صناعة وثقافة كسائر اصناف العلم والصناعات . وان كثرة المدارسة تعين على العلم(٣٢) وكان خلف بن حيان ( خلف الاحمر ) نموذجاً لمثل هذا الناقد عند ابن سلام . فهو ( من افرس الناس ببيت شعر واصدق لساناً . كما لانبالي اذا اخذنا خبراً او انشدنا شعراً ان لانسمعه من صاحبة(٣٣) .

وتأمل قوله ( افرس الناس ببيت شعر ) قوله ( اصدق لساناً ) فجعل لصاحب العلم بالشعر خصيصتين اساسيتين : الفراسة .. اي القدرة على النظر في بواطن الامور يريد بذلك فهم الشعر .. والصدق في الرواية . والخصيصتان متلازمتان . فالناقد البصير بالشعر والشعراء يستطيع في الوقت نفسه ان يميز صحيح الشعر من منحوله وهاتان هما المهمتان اللتان اسندهما ابن سلام للعالم بالشعر والناقد له . ولهذا يرى د . احسان عباس ان ابن سلام اول من نص على استقلال النقد الادبي ، واول من اسند للناقد دوراً حين جعل للشعر ـ اي لنقده والحكم عليه ـ صناعة يتقنها اهل العلم بها(٣٤) .

ومع ذلك نظن ان ابن سلام اولى مسألة الشعر المنحول عناية اكبر وانه لذلك جعل مهمة الناقد الاساسية تمييز الشعر الصحيح من الشعر المنحول وكان قد شبه صناعة الشعر بصناعة تميز الدينار بهرجة وزائفة من صحيحه(٣٥) وكأنه بذلك يؤكد حقيقة ان مهمة ناقد الشعر التمييز بين الصحيح منحول والجيد والرديء .

والواقع ان ابن سلام ووجه وهو في تلك المرحلة من مراحل رواية الشعر العرب وتدوينه بمعضلة كبيرة وهي معضلة الشعر المنحول او الموضوع . ورأى ان العالم البصير بالشعر اقدر ـ او ينبغي له ان يكون ـ من غيره على ممارسة عملية التمييز هذه . ذلك ان من وظائف النقد ما يمكن ان يرتبط بمهمة محددة تفرضها المرحلة الثقافية التي يمر بها المجتمع . وقد كانت رواية الشعر وتدوينه من المهمات الاساسية التي ندب الرواة واللغويون انفسهم لها . في اثناء رواية الشعر برزت معضلة الشعر الموضوع فكان لابد للناقد ان يكون له دور في عملية غربلة الشعر بما

---

( ٣٢ ) السابق ٣

( ٣٣ ) السابق ٩

( ٣٤ ) تاريخ النقد الادبي عند العرب ٧٨

( ٣٥ ) الطبقات ٣

يملكه من معرفة وعلم يمكنا له من تميز اساليب الشعراء والكشف عن خصائص شعرهم . وبعد ذلك تمييز صحيح الشعر من منحوله .

وقد انتهت عملية الفرز هذه في اوائل القرن الثالث للهجرة ولم تعد تشكل قضية نقدية بارزة . ولذلك لم نجد ناقداً بعد ابن سلام يهتم بها اهتمام ابن سلام او يعدها قضية نقدية ينبغي لمؤرخ الشعر وناقده ان يتصدى لها . فالمرحلة التاريخية الجديدة بما فرضته من معضلات وقضايا ادبية ولغوية وبلاغية جديدة وجهت النقد ـ والناقد ـ وجهة جديدة كما سيتضح ذلك في الفصول القادمة .

يقول الاستاذ طه احمد ابراهيم ان الحديث عن الشعر الموضوع(٣٦) طبيعي . لان مرحلة تدوين الشعر انتهت . واقبل العلماء على فحصه ودراسته وهذا كلام قد لايكون دقيقاً تماماً لان عملية فحص الشعر وتمييز صحيحة من منحوله بدأت مع بداية رواية الشعر وتدوينه وانتهت بعيد انتهاء التدوين . فهذا هو الامر الطبيعي . وقد مر بنا ان رواة اللغة والشعر في النصف الثاني من القرن الاول والقرن الثاني للهجرة مارسوا عملية التمييز هذه . جنباً الى جنب مع عملية الرواية والتدوين . ويندر ان نجد راوية او لغوياً لم يعرض لمسألة الشعر الموضوع بشكل او اخر . فالجميع شاركوا في هذا وخلفوا لنا تراثاً لايستهان به من الافكار والاراء والحلول في هذا الشأن . ولم يكن دور ابن سلام في ذلك غير عرض تلك الاراء وتقويمها على نحو منضم ومنهجي . وكان اول من فعل ذلك . وقد اطلق د . مندور علي عمله اسم ( تحقيق النصوص )(٣٧) .

لاحظ ابن سلام ـ وهو يترجم للشعراء في طبقاته ـ قلة في شعر بعضهم .. وزيادة في شعر آخرين(٣٨) لاحظ وضعاً في الشعر الذي يروي .. واورد روايات على هذا فقال عن قراد بن حنش انه كان جيد الشعر قليلة وكانت شعراء غطفان تغير على شعره فتأخذه وتدعيه . ومنهم زهير بن ابي سلمى(٣٩) .

---

( ٣٦ ) تاريخ النقد الادبي عند العرب ٧٧

( ٣٧ ) النقد المنهجي عند العرب ١٨

( ٣٨ ) الطبقات ٢٨

( ٣٩ ) السابق ١٤٧

وقال عن حسان بن ثابت ( وقد حصل عليه مالم يحصل على احد ووضعوا اشعاراً لاتليق به(٤٠) . وعن ابي طالب يقول ( كان شاعراً جيداً . وابرع ما قاله قصيدته في مدح النبي . وقد زيد فيها وطولت(٤١) .

وينسب الى عمرو بن العلاء قوله ( ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا اقله . ولو جاءكم وافراً لجأكم علم وشعر كثير )(٤٢) وكان ابن سلام قد لاحظ عن عبيد بن الابرص ما يستدعي الاهتمام حقاً قال ( وعبيد بن الابرص قديم عظيم الشهرة . وشعره مضطرب ذاهب لا اعرف له الا قوله :

اقفر من اهله ملحوب

وما ادري ما بعد ذلك )(٤٣) . فاذا كان شاعراً كثيراً مثل عبيد ذهب اكثر شعره فما بالك بالاخرين ؟

ثم جاء الاسلام فتشاغلت عن الشعر وروايته بالاسلام . وعندما اطمأنت العرب بالامصار راجعوا رواية الشعر . فلم يؤولوا الى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب . وقد هلك من العرب من هلك فحفظوا اقل ذلك . وذهب عنهم منه اكثره(٤٤) . فالاسباب في رأي ابن سلام ـ ثلاثة : ـ

١ . انه لم يكن للعرب ديوان مدون ولا كتاب مكتوب عدا ما قيل ان للنعمان بن المنذر ديوان اشعار فحول . وما مدح به هو وأهل بيته . وقد صار هذا الديوان الى بني مروان .
٢ . ان حملة الشعر وحفاظه قد هلكوا وضاع معهم شعر كثير .
٣ . وكان بعض الشعر قط في الجاهلية ولم يصل الينا مثل شعر ابي سفيان بن الحارث .

---

( ٤٠ ) السابق ٥٢
( ٤١ ) السابق ٦٠
( ٤٢ ) السابق ١٠
( ٤٣ ) السابق ٣١

( ٤٤ ) السابق ١٠ ، ٦١ . ويرى د . ناصر الدين الاسد ان كلام ابن سلام ثلاثة اشطر اوله ( انشغال العرب بالاسلام ) يحتاج الى فضل بيان ووسطه ( فلم يؤولوا الى ديوان مدون ) باطل ، واخره ( فحفظوا اقل ذلك ) حق انظر مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ١٩٥ وما بعدها .

ويقول ابن سلام ( فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر ايامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم . وارادوا ان يلحقوا بهم الوقائع والاشعار . فقالوا على السن شعرائهم . ثم كانت الرواة بعد ذلك فزادوا في الاشعار )(٤٥) .

واذن فقد اشترك في عملية الوضع العشائر التي وجدت ان مايروى لها من شعر قليل قياسا الى ماكان لها في الجاهلية . ويعود ابن سلام الى هذا في موضع اخر بالقول ( وقالت العشائر باهوائها )(٤٦) واشترك الرواة ايضاً . ومنهم حماد الرواية ( وكان اول من جمع اشعار العرب وساق احاديثها وكان غير موثوق به. كان ينحل شعر الرجل غيره ويزيد في الاشعار(٤٧) .

وكان نصيب محمد بن اسحاق ( ت ١٥٢ هـ ) من نقد ابن سلام كبيرا حقا اذ قال عنه « وكان ممن هجن الشعر وافسده وحمل كل غثاء محمد بن اسحاق مولى آل مخرمة ابن المطلب بن عبد مناف . وكان من علماء الناس بالشعر . فنقل الناس عنه الاشعار . وكان يعتذر منها ويقول لاعلم لي بالشعر . انما اوتي به فاحمله ولم يكن ذلك له عذرا . فكتب في السير من اشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط واشعار النساء فضلا عن اشعار الرجال ثم جاوز ذلك الى عاد وثمود . افلا يرجع الى نفسه فيقول من حمل هذا الشعر ومن اداه منذ الوف من السنين ؟ والله يقول ( وانه اهلك عادا الاولى وثمود فما ابقى ) وقال في عاد ( فهل ترى لهم من باقية )(٤٨) وهو يبطل الشعر الذي يرويه ابن اسحاق بالادلة الاتية : ـ

١ . دليل نقلي . وهو ما جاء عن عاد وثمود في القرآن الكريم .
٢ . دليل لغوي . وهو ان العربية لم تكن موجودة في عهد عاد . ويقول ان اول من تكلم العربية اسماعيل بن ابراهيم ثم ان عادا من اليمن . ولليمن لسان غير لساننا ويستند في هذا الى قول ابي عمرو بن العلاء : ـ

( ما لسان حمير واقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا ) .

---

( ٤٥ ) السابق ١٤
( ٤٦ ) السابق ١٠ ، وانظر ايضا ص ٥٢ .
( ٤٧ ) السابق ٤
( ٤٨ ) السابق ٤

٣ . دليل ادبي . وهو ان القصيدة العربية حديثة النشآة . فقد قصدت القصائد وطول الشعر في عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف . ويقول ايضا ان اول من قصد القصيد وذكر الوقائع المهلهل بن ربيعة التغلبي . وكانت العرب تقول قبل ذلك الابيات فقط(٤٩) .

ثم يشير الى ان شعراء الجاهلية كانوا في ربيعة . اولهم المهلهل والمتلمس وطرفة والمتلمس والاعشى . ثم تحول الى قيس ومنهم النابغة وزهير وكعب ولبيد والجعدي والحطيأة وانتقل بعدها الى تميم ( فلم يزل فيهم الى اليوم )(٥٠) .

غير ان ابن سلام لم يحدد كيف يتم ابطال الشعر الموضوع على لسان شعراء الجاهلية المعروفين . لقد اشار الى صعوبة تحديد الشعر المصنوع من الصحيح وخاصة ذلك الذي جاء على لسان الوضاعين من الرواة المشهورين مثل حماد الراوية وخلف الاحمر وكان يقول عن شعر عدي ( فحمل عليه شيء كثير وتخليصه شديد )(٥١) .

على ان هناك اسسا اعتمدها ابن سلام للتثبت من سلامة الرواية وهي اسس غامضة يقول مثلا بعد الاشارة الى ان حمادا يكذب ويلحن ( ثم اقتصرنا بعد الفحص والنظر والرواية عن من مضى من اهل العلم .... الخ(٥٢) ولا تعني هذه العبارة شيئا اكثر من الاشارة الى ( اهل العلم ) . واهل العلم بالرواية افضل من الرواة . والرواية عنهم اسلم وهم اصدق . اذ يجمعون الى الرواية العلم . وقولهم فصل في صحة الشعر الذي يروونه . وكنا قد اشرنا الى انه كان يطمئن الى روايات خلف لدرجة انه لايبالي ان لم يسمع الرواية نفسها من صاحبها . وخلف عنده من العلماء والرواة .

---

( ٤٩ ) السابق ٤ ، ٥ ، ١١ وانظر تاريخ النقد الادبي عند العرب ٨٨ وما بعد
( ٥٠ ) السابق ١٣
( ٥١ ) السابق ٣١
( ٥٢ ) السابق ١٥

ومما يزيد من توثيق الرواية ( الاجماع ) وفي هذا يقول ( اما ما اتفقوا عليه فليس لاحد ان يخرج منه(٥٣) ويقول ( وليس لاحد اذا اجمع اهل العلم والرواية الصحيحة على ابطال شيء منه ان يقبل من صحيفة او يروي عن صحفي )(٥٤) .

## تقويم عام

ليس من شك في ان لابن سلام شخصية واضحة في كتاب الطبقات تتمثل في تعليله وتفسيره لكثير من الظواهر الادبية . فهو ـ على الرغم من توزيعه الشعراء الى طبقات ـ نظر الى ( البيئة ) . فأفرد لها مجموعة اعترافا منه بأهمية البيئة في تحديد ملامح بعض الشعراء . وقد يبدو ان للبيئة الحضرية ( شعراء القرى العربية ) اثرا في ليونة اشعار هؤلاء الذين عاشوا في هذه القرى قياسا الى صلابة شعر الجاهليين من اهل البادية وخشونته . فنراه يقول في شعر عدي انه ( من سكان الحيرة ومراكز الريف فلان لسانه وسهل منطقه فحمل عليه شعر كثير )(٥٥) وعن شعر قريش يقول ( انه لين يسهل تقليده )(٥٦) وسنجد ان هذه الفكرة وجدت طريقا عند النقاد اللاحقين مثل عبد العزيز الجرجاني في كتاب ( الوساطة ) .

ثم انه حاول ان يفسر كثرة الشعر وقلته بالحروب . ( وانما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الاحياء نحو حرب الاوس والخزرج . او قوم يغيرون ويغار عليهم . والذي قلل شعر قريش انه لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا وذلك الذي قلل شعر عمان واهل الطائف )(٥٧) ويعقب د . محمد مندور على هذا بالقول ( فتفسيره لندرة شعر بعض القرى مردودا لان الشعر ليس كله في الحرب ولا هو قاصر عليها ... فليس بصحيح ان الشعر كان نادرا في مكة مثلا خصوصاً بعد الاسلام (٥٨) ويضيف ( ولين شعر عدي لا يكفي لتعليله قوله انه سكن الحيرة . والا حرنا في تعليل نحت الفرزدق من حجر واغتراف جرير من بحر )(٥٩) .

---

( ٥٣ ) السابق

( ٥٤ ) السابق

( ٥٥ ) السابق ٣٠

( ٥٦ ) الطبقات ، ( ط محمود محمد شاكر ) ٩٥ نقلا عن ( النقد في العصر الوسيط ) ٩٨

( ٥٧ ) الطبقات ٦٥ ـ ٦٦ نارت نائرة الناس معنى هاجت هائجة

( ٥٨ ) النقد المنهجي عند العرب ٢٠

( ٥٩ ) السابق

على ان ابن سلام يشير ـ في بعض الاحيان ـ الى الظواهر دون تعليل او تفسير مثل قوله ( وجعلت اصحاب المراثي طبقة بعد العشر طبقات )(٦٠) او قوله ( والمقدم عندنا متمم بن نوبرة )(٦١) . وقد يكون مفهوماً ان يضع ( الرجاز ) في طبقة مستقلة . اما ان يجعلهم في الطبقة التاسعة فهو امر لم يقدم له تفسيراً معقولاً غير ان القارىء قد يستطيع ان يستدل من عبارة وردت في موضع سابق تشير الى ان القصيد في الهجاء افضل من الرجز(٦٢) ملمحا الى افضلية شعر القصيد على الرجز ولهذا كان موضع الرجاز في الطبقات المتأخرة .

وقد وجد الدارسون في منهج ابن سلام جملة مآخذ اضافة الى ماأشرنا اليه او ناقشناه .

فالمآخذ على مسألة نحل الشعر قليله قياسا الى المأخذ على نظرية الطبقات ويمكن اجمالها فيما يأتي : ـ

١ . ان ابن سلام رفض شعراً منسوباً لعاد وثمود . ورفض مارواه محمد بن اسحق ولكنه وقع في مثل ماعابه على محمد بن اسحاق . فأضاف الى الجاهلية من الشعر ماليس لهم . كالآبيات التي نسبها الى المستوغر بن ربيعة واعصر بن سعد وزهير بن جناب الكلبي وجذيمة الابرش(٦٣) .

٢ . ان اتهام ابن سلام لحماد الراوية مرده اختلاف منهجي كل من البصرة والكوفة في رواية الشعر واختلاف مصادرهما ايضاً(٦٤) . ويضيف د . ناصر الدين الاسد قائلاً:ان ابن سلام لم يكن موضوعيا في نقده الشديد لحماد واعجابه المفرط وبخلف مع ان الاثنين موضع تجريح وشك . الا ان بصرية خلف انقذته من نقد ابن سلام لانه هو الاخر بصرى . اما المآخذ على نظرية الطبقات فهي : ـ

---

( ٦٠ ) الطبقات ٤٨

( ٦١ ) المصدر السابق

( ٦٢ ) المصدر السابق ١٢٧ .

( ٦٣ ) النقد في العصر الوسيط ١٣٦ ، مع ان المؤلف يعود فيستدرك بالقول ان هذه الابيات المنسوبة الى هؤلاء الشعراء قد تكون قد اقحمت على كتاب الطبقات . اذ ليس من المعقول ان يطمئنّ اليها ابن سلام وهو الذي اورد الحجج في قضية دحض الشعر المنحول والموضوع ... انظر ١٣٦ ـ ١٣٨ .

( ٦٤ ) مصادر الشعر الجاهلي ٤٣٧ ، وانظر اليها ٤٧٧ ـ ٤٧٨ .

١ . . ان ابن سلام أغفل ذكر شعراء اسلاميين وامويين كبار مثل الكميت والطرماح وعمر بن ابي ربيعة . ثم انه لم يتعرض لمعاصريه من الشعراء وقد اشرنا الى ذلك من قبل .

٢ . انه لم يتعرض لمكانة شعراء القرى العربية كما انه لم يورد اخبارا او قدم تحليلاً لبعض الشعراء بل اكتفى بسرد الاسماء .(٦٥)

٣ . ان ملكة ابن سلام الادبية في تحليل الشعر لاتكاد تظهر(٦٦) . ولذلك فأن كتاب الطبقات في الشعراء لافي الشعر .

٤ . ان ابن سلام جعل الراعي النميري مع الفرزدق وجرير والاخطل دون حجة مقنعة .

٥ . ويرى د . احسان عباس ان نظرية الطبقات جليلة حقا ولكنها تظل قوالب اذا هي لم تعتمد الدراسة التحليلية وتبيان الاسس المشتركة والسمات الغالبة فهي نظرية صعبة وقد اثر النقاد مؤرخو الادب من بعده تحاشيها فرارا من تلك الصعوبة(٦٧) .

ومن المناسب ان نشير الى ان اللاحقين لم يتحاشوا تماماً نظرية الطبقات كما يرى د . احسان عباس فمن المأثور ان دعبلا الخزاعي الف بعد ابن سلام كتاباً في طبقات الشعراء لم يصل الينا ونستدل من الاشارات القليلة ان هذا الكتاب يبحث في الشعراء الاسلاميين والمخضرمين والمحدثين . وان المؤلف اتخذ المدن والاقاليم ( اي البيئة ) اساسا في التقسيم(٦٨) .

والف ابن المعتز كتاب ( طبقات الشعراء ) وقد خص به المحدثين وهو يختلف تماما عن منهج ابن سلام . فالكتاب ـ على الرغم من العنوان ـ في تراجم الشعراء المحدثين الذين اهملتهم كتب الطبقات السابقة .

بعد ذلك لانجد من الف كتابا على وفق هذه النظرية الا ان الاشارة الى ( الطبقة ) او ( الطبقات ) وردت في كتاب النقد والادب . وقد يكون ابن رشيق اخر من بحث ذلك في كتاب ( العمدة ) .

---

( ٦٥ ) عبدالعزيز عتيق ، تاريخ النقد العربي ٣٠٠

( ٦٦ ) تاريخ النقد الادبي عند العرب ٩٨

( ٦٧ ) تاريخ النقد الادبي عند العرب ٨٢

( ٦٨ ) مصطلحات نقدية ( رسالة ماجستير مخطوطة ) وما بعد .